المبحث الاول

الصورة في شعر الشاب الظريف

تعد الصورة وتشكيلاتها عنصرا مهما من عناصر البناء الشعري. هذه الاهمية تنبع من كونها رسم بالالفاظ والكلمات، فكما ان الفنان يبدع اشكالا فنية بريشته، والمصور يرسم الحياة بعدسته، فان الشاعر يرسم صوره من خلال الالفاظ والكلمات، وكذلك من كونها ((تشتمل على جميع عناصر الشعر ابتداء باللغة واشكال تراكيبها فالموسيقى وما تكتنفه من وزن وايقاع وانتهاء بالايحاء وما يبعثه من مشاعر واحاسيس ورؤى متخيلة فضلا عن التخطيط والتلوين والتحديد والانفتاح الذي تحدده دوال البناء الشعري للصورة))[1]وكذلك ؛ لان ((الاتجاه الى دراسة الصورة يعني الاتجاه الى روح الشعر))[2]، فهي بمثابة الروح للجسد والقلب النابض بالحياة فيه ؛ لانه ((لا ((لا يمكن للعقل ان يتقبل صورا تهيم على وجهها متبعثرة دون ان يدرك لها سببا بنائيا وعلاقات متواصلة فيلح اذن على ايجاد الرابط، وبوجود ذلك الرابط بوساطة بذل الجهد الفني الى جانب جميع القوى التي يحركها الفعل الشعري تحدث حركة عقلية لايجاد نسق او نظام يطبع القصيدة))[3]. والصورة ليست شكلا جامدا او ((جاهزا وامرا معقدا وانما هي عمل ابداعي في لحظة تلقائية تعتور الشاعر نتيجة لمدرك حسي او عقلي او خاطرة تعرض على الذهن))[4]، وربما وربما كانت الصورة باهتة في بعض الاحيان، فما هي الا نقل لواقع مجرد تخلو من العاطفة والاحساس كقوله:

مولاي انا في جوارك خمسة

بتنا ببيت ما به مصباحُ

(1) البناء الشعري عند الفرزدق: 194 رسالة ماجستير.
(2) فن الشعر، د. احسان عباس، دار الشروق للنشر والتوزيع، عمان/الاردن، ط4، 1987م: 200.
(3) الصورة في التشكيل الشعري، د. سمير علي سمير الدليمي، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، ط1، 1990: 78.
(4) البناء الشعري عند السري الرفاء، رميض مطر حمد الدليمي،رسالة ماجستير-باشراف الدكتور حسن يحيى محمد رضا الخفاجي، كلية التربية/جامعة الانبار، 1416هـ-1995م: 117.

ما فيه لا لحم ولا خبز ولا

ماء ولا شيء له نرتاح

كل تراه من الكآبة والطوى

شبحا فنحن الخمسة الاشباح

ما فاتنا الا التجلل بالعبا

فجسومنا لعبت بها الارواح [1]

وهي صورة واقعية مميزة في الهجاء ترسم حالة الشاعر واصحابه وقد حلوا ضيوفا عند احد الاشخاص البخلاء.

وربما كانت تلك الصورة تكسبية في المديح الغرض منها كسب ود الممدوح لا اكثر كقوله:

ما لي عز الا بجود يد

منك كحال السحاب ان هطلا

يا من غدا باهتمامه بطلا

بغير ما حقٍ منه او بطلا[2]

مذ عدمت عيني له مثلا

ارسلت مدحي بجوده مثلا[3]

لانظمن المديح من درر

لم تدر علياك بعده عطلا

(1) الديوان: 112.
(2) بطل الاولى: شجاع، والثانية: من الباطل
(3) مثلا الاولى: شبيه، والثانية: من الامثال.

اليوم يقضي الكريم موعده

والحر لو قال ما عسى فعلا[1]

وقد تكون تلك الصورة مقلدة ؛ لان الشاعر في بعض الاحيان ((يقلد ولو لم يذق، يكون رجل دين فيتغزل بالخمر، وعفيفا فيتغزل بالمذكر، وفي وسط المدينة فيبكي الاطلال والدمن وهكذا))[2]وكقوله:

قولوا لزجاجكم ذا الذي

له محيا بالسنا مسفرُ

ان كنت في الصنعة ذا خبرة

وكان معروفك لا ينكر

فما لاحداقك اقداحها

في صحة من حسنها تكسر[3]

فالزجاج ومحياه المسفر واحداقه التي تكسر وتتكسر صورة مقلدة وفي بعض الاحيان تكون هذه الصورة اشبه ما تكون بالصورة الكاريكاتورية كقوله متغزلا بالداية:

يا داية في حسنها ارتضي

ان عذولي دائما يسخطُ

تداركي من مهجتي حاملا

حبك من خوف النوى تسقط[4]

(1) الديوان: 265 – 266.
(2) قصة الادب في العالم: 1 / 462.
(3) الديوان: 156.
(4) الديوان: 198.

- وربما كانت الصورة في احيان كثيرة ((رسما قوامه الكلمات المشحونه بالاحاسيس والعاطفة))[1] كقوله راسما صورة الرحيل وصورة صاحبته واحاسيسه وعواطفه:

استودع الله ركبا في هوادجهم

محجب ليس ترعى عنده ذممُ

له من الغصن قدٌّ زانه هيفٌ

ومن غزال الحمى طرف به سقم

يبيت قلبي عليه حرقة وجوى

وقلبه بارد من لوعتي شبم

فوالذي زانه من طرفه سقم

واودع السحر فيه انه قسم

لولا تثني رديني القوام به

حلفت الف يمين انه صنم[2]

والصورة الاولى للركب وقد ظعنوا في هوادجهم وقد حملوا قلبه معهم، والصورة الثانية للمحجب الذي سرق قلبه معه، فهو يحمل صورة القد الذي كالغصن في هيفه، وطرفه كطرف الغزالة في سقمه، ويكأنه داء اصابه فامرض قلبه، وهي صورة اكتفى منها بالقد والعين وجمالها وترك لمخيلة المتلقي اضفاء اللمسات الاخرى، وهذا هو موطن الداء الذي انتقل من خلاله الشاعر الى داخله واحاسيسه، وكيف ان قلبه قد اشتعل بنيران الجوى حرقة واسى وان الذي لم يرع الذمم والعهود قلبه بارد شبم لا يأبه للوعته وعذابه، فتركه يتقلب على جمر الهوى ونيرانه ؛ لان قلبه كالجمر في قسوته ولولا قوامه المتثني كالرمح لكان كالصنم او كالحجر الذي صنع منه هذا الصنم،

(1) الصورة الشعرية. سيسيل دي لويس، ترجمة احمد نصيف الجنابي- مالك ميري- سلمان حسن ابراهيم – دار الرشيد- بغداد، 1982: 23.

(2) الديوان: 299 – 300.

والملاحظ ان اغلب صور الشاب الظريف في الغزل هي رسم لمعنى الهجر والصدود والفراق وتدور حول محورين:

الاول: رسم صورة لجمال الطرف الآخر، والذي كان سببا في هيامه وغرامه مع صدوده وتثنيه وتعطفه عنه لا عليه.

الثاني: رسم صورة لنفسه وقد احرقته نيران الجوى وجمرة الصدود وتباريح الهوى، كالمثال السابق الذي جمع فيه هاتين الصورتين ومن رسمه صورة لنفسه وقد غرق في بحر الهوى، والوجد قد سلبه عقله، وانفاسه الحرى متصاعدة تكويه بنار اللوعة، وعلى شط النوى دموعه متحادرة كالانهار كقوله:

فقلبي في بحر الصبابة واقع

غريق ولبي في فضا الوجد طائرُ

ولي نفس من لوعتي متصاعد

ودمعي على شط النوى متحادر[1]

- وكما ان ليل صاحبه قصير لسروره، فليله طويل ليس له اخر لهمومه، ومكابداته التي اذابت احشائه، واجرت مدامعه، واعلت وعلت قلبه وسهدت جفنه:

لي من جمالك شاهد وكفيل

اني عن الاشواق لست احولُ

يا من تقاصر ليله لسروره

ليلي كما شاء الغرام طويل

غادرتني بحشى تذوب ومقلة

عبرى وقلب حظه التعليل

في كل جفن للتسهد موطن

(1) الديوان: 159.

وبكل خد للدموع مسيل[1]

فيشكو حاله تلك علَّهم يرقون له، وتشفع دموعه عندهم وقد رقت عليه:

يشـــــكو اليـــــك متـــــيم صـــــب جفـــــاه هجوعـــــهُ

يعصـــي العـــذول علـــى هـــوى بـــــك لا يـــــزال يطيعـــــه

يكفيـــك مـــن الـــم الجـــوى مـــــا ضـــــمنته ضـــــلوعه

ان لـــم تـــرقَّ لـــه فقـــد رقَّـــت عليـــه دموعـــه[2]

- او قد يرسم صورة لجمال صاحبه الذي كان سببا في حاله تلك موظفا التشبيه البليغ الذي حذفت فيه الاداة ووجه الشبه :

وحزت جمالا ليس في الخلق مثله

به دائما قلبي يهيم ويشغفُ

فخدك وردٌ واللواحظ نرجسٌ

وشخصك ندمان وريقك قرقف

وجفنك نبَّال وشعرك مسبلٌ

وقدك خطيّ ولحظك مرهف [3]

وهي صورة متكاملة للجمال، فالخد يشبه الورد في جماله، واللحظ كالنرجس الابيض في بياضه المحيط بمركزه، وهو ظريف في شخصه كالنديم، والريق عذب كالخمرة، وجفنه فاتك كانه نبَّال يرمي السهام، والشعر مسبل مرسل ومسلسل، وقده كالرمح في تثنيه واعتداله، ولحظه مرهف يقطع قلوب العاشقين، فاي صورة للجمال بعد هذه، ومن صور الجمال الاخرى قوله:

مثل الغزال نظرة ولفتة

(1) الديوان: 257.
(2) الديوان: 205 – 206.
(3) الديوان: 218.

من ذا رآه مقبلا ولا افتتنْ

احسن خلق الله وجها وفمًا

ان لم يكن احق بالحسن فمن

في جسمه وصدغه وشكله

الماء والخضرة والوجه الحسن[1]

اما في غرض المديح فان الصورة ترتكز على اظهار الممدوح بصورة الشجاع المهاب المقدام المجرب للامور اولا، كقوله:

لاعناقهم بالبيض منك معانق

لغير هوى فيهم وبالسمر لاثمُ

تفتح منهم بالسيوف شقائقا

عليها الدروع الضافيات كمائم

بحرب تكون البيض منها بوارقا

نجيعهم فيها الغيوم السواجم

قتلتهم بالذعر حتى كانما

تحاربهم فيه وانت مسالم

- ومنها:

على الاعوجيات العتاق التي لها

حوافر للهامات منها عمائم

(1) الديوان: 339.

سهام على مثل السهام تبسَّمت

سيوفهم حيث الوجوه سواهم

- وايضا:

وتحتقر الفرسان حتى كانهم

وهم بُهَمٌ يوم الهياج بهائم

كانك ام والانام باسرهم

يتامى وبعل والانام ايائم

تؤم رماح الخط بيضك في الوغى

كما قابلت بيض الوجوه المعاصم[1]

حتى لتحس وانت امام الانثيال لهذه الصور، وكانك في قلب المعركة او امام مشهد حربي. بطله الممدوح من خلال سطوته على اعدائه، فيشبه ضربه لاعناقهم بالبيض وهي السيوف وتلاحمها معهم وشدة قربه منهم بالمعانقة بين المتحابين بيد انها لغير هوى كما ان رماحه وهي السمر لائمة لاعدائه، فهي في شوق للفتك بهم كما به شوق الى الوغى ومقارعة الاقران، ومن ثم يرسم صورة لما تفعله ضرباته تلك باعدائه وهم يتسربلون الدروع، فتفتح فيهم من الدماء ازهارا كشقائق النعمان الحمراء حال تفتحها في اكمامها، والدروع هي تلك الاكمام، والرابط بين الصورتين او وجه الشبه هو اللون الاحمر لون الدم ولون الورد. فكما ان الاكمام تفتح عن الورود الحمراء فان الدروع تفتح عن الدماء من هول ضرباته، ومن ثم يرسم صورة لهول تلك الحرب من خلال تشبيه السيوف البيض اللامعة فيها بالبرق، والغبار المتصاعد من سنابك الخيل وكانه الغيوم السوداء التي تبرق منها تلك السيوف والرابط بين الصورتين هو اللون الابيض للسيوف في لمعانها والبرق في توهجه، والاسود للغبار المتصاعد كالغيوم السواجم[2]. وهذه الصورة ربما كانت مستقاة مستقاة من قول بشار بن برد وهو يصف المعركة ايضا بقوله :

---

(1) الديوان: 293-296.

(2) سجم الماء: إذا سال وانسجم واسجمت السحابة دام مطرها، لسان العرب: مادة (سجم)، 3 / 1947 /.

كان مثار النقع فوق رؤوسنا

واسيافنا ليل تهاوى كواكبه[1]

فتناول هذا المعنى والبسه حلة جديدة غير حلته تلك، وان كان شبَّه شيئين بشيئين كبشار الا انه شبه الغبار بالغيوم، وليس الليل وشبه السيف بالبرق وليس الكواكب المتهاوية، ولا شك ان هذه صورة مبتكرة غير مقلدة ربما كانت ابلغ لشدة البرق وتتابعه وهو ابعث على الخوف كالسيوف وما يرافقها من رعد كانه موسيقى تصويرية لجلبة المعركة وصليل السيوف وحركتها ولان القتال في الليل وان كان ابلغ في التشبيه الا ان المقاتل يكون في هذه الحالة كحاطب ليل، والعرب تدلل من خلال الغيوم والغيث على الخصب والخير وكان لشاعر اراد ان يدلل من خلال ذلك على نصر ممدوحه. وقد تناول اكثر من شاعر هذه الصورة كالبحتري الذي تناولها كما هي الا انه خص وقوع الكواكب او السيوف فوق جماجم الاقران.

فالنقع ليل والسيوف كواكب

تسقط فوق جماجم الاقران[2]

(1) ينظر الصناعتين: 272 وينظر اسرار البلاغة: 165 وينظر معاهد التنصيص على شواهد التلخيص، عبد الرحيم بن احمد العباسي، ثم تح محمد محيي الدين عبد الحميد، عالم الكتب، بيروت، 1367هـ 1947: 28/2.

(2) ديوان البحتري، تح حسن كامل الصيرفي، طبعة دار المعارف، مصر، 1963م: 2381/4.

- وتناولها ايضا المعتمد بن عباد وكان كصاحبه الاول مقلدا لم يأت بشيء جديد:

راينا السيوف ضحى كالنجوم

وكالليل ذاك الغبار المثارا[1]

- والمتنبي:

يزور الاعادي في سماء عجاجة

اسنته في جانبيها الكواكبُ[2]

وكلثوم بن عمر العتابي:

مدت سنابكها من فوق ارؤسهم

ليلا كواكبه البيض المباترُ[3]

فكان للجرجاني راي في تفضيل بشار على الاخيرين بقوله "وتهاوى" اذ جعل للسيوف حركة في تصاعدها ونزولها[4]فصورهم قصرت عن صورته ما عدا الشاب الظريف الذي اضفى عليها بعدا اخر.

ومن ثم ينتقل الى صورة اخرى للممدوح مستعملا اسلوبا بيانيا من خلال التشبيه، فاعداؤه مذعورون منه حتى وان لم يكونوا في حالة حرب معه فمن شدة ذعرهم كانهم في حالة حرب حتى في وقت السلم.

وربما كانت هذه الصورة مستقاة من حديث الرسول ﷺ ((نصرت بالرعب على العدو وأُتيت جوامع الكلم)) [1]. مما يدلل على ان تلك الصور ما هي الا استلهام لصور سابقة او تمثل

(1) ديوان المعتمد بن عباد، تح الدكتورحامد عبد المجيد والدكتور احمد احمد البدوي، مطبعة دار دار الكتب المصرية – القاهرة ، 1430هـ - 2009: 98، وقد ورد البيت في الديوان مدورا والصحيح ما اثبت.
(2) ديوان ابي الطيب المتنبي، تح عبد الرحمن البرقوقي ، المكتبة التجارية الكبرى، مصر، 1357-1938: 123/1، وينظر: شرح ديوان ابي الطيب المتنبي، ابو العلاء المعري تح عبد المجيد ذياب، دار المعارف، مصر د-ت: 266/1.
(3) الصناعتين: 272، وينظر اسرار البلاغة: 165.
(4) اسرار البلاغة: 165.

للتراث من غير تقليد، وسندرس ذلك في المبحث التالي مصادر الصورة، وتمتد الصورة الى الخيل في المعركة فيكنى عنها بالاعوجيات او العتاق – لاصالتها –إلى كثرة القتلى فيها حتى اصبحت تلك الخيل لا تطأ الارض بحوافرها وانما تطأ اجساد القتلى وجماجمهم وكأن حوافرها اصبحت كالعمائم لتلك النواصي، وتبقى صورة الخيل في البيت التالي، ولكنها تتوسع بحجم اكبر من خلال استعمال الكناية فهم كالسهام في خاصرة الاعداء وهم على مثل السهام كناية على الخيل -لسرعتها – متبسمون لاعتدادهم بانفسهم وشجاعتهم وثقتهم بالنصر، وسيوفهم تقع حيث الوجوه سواهم كناية على وجوه الاعداء المذعورة، والدليل على شجاعتهم تلك هو احتقار الممدوح لفرسان الاعداء يوم الهياج حتى كانهم بهائم، ورعايته لجنوده ورعيته لها موقع خلال تلك الصور، فهو ليس شجاعا فقط وانما رحيم عطوف كالام على ايتامها او كالبعل على زوجته، فاستعمل التشبيه اداة لرسم هذه الصورة، ويعود الى صورة المعركة ورماحه فيها كالامام في مقدمة الصفوف مشرعة في وجوه الاعداء كما اصابع اليد المشرعة امام الوجه، والملاحظ ايضا ان بعض صوره مبتكرة كصور الرماح التي تؤم السيوف والحوافر التي هي كالعمائم لجماجم اعدائه....

والصورة الاخرى التي ركز عليها الشاب الظريف في ممدوحه هي صورة الكريم العف السجايا الطيب الاخلاق كقوله مستعملا بعض الاعلام ممن يضرب فيهم المثل في الجود وحسن الخلق للدلالة على تلك الصفات في ممدوحه:

فليس الفضل والحسن بن سهل

وان يك فيهما منح وبذلُ

كجودك او كخلقك يوم سلم

فذا فضل وذا حسن وسهل[2]

فالكاف كانت الاداة التي من خلالها رسم الصورة، ولكن الامر لم يقتصر على ذلك فصورته هي اعلى رتبة منهما وان كان يضرب فيهما المثل.

---

(1) صحيح مسلم (المسند الصحيح المختصر بنقل العدل عن العدل إلى رسول الله صلى عليه وسلم، مسلم بن الحجاج ابو الحسن القشيري النيسابوري (المتوفى 261هـ)، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، دار احياء التراث العربي – بيروت.

(2) الديوان: 256.

قد يصوغ صورة لحديثه وبلاغته وقوة جداله وقدرته على اقامة الحجة، وكانه هو الذي صاغ حسن البديع ووضع للبلاغة قوالبها وقواعدها:

صاغت عبارتهم حسن البديع بها

من البلاغة في اسنى القواليب[1]

او قوله :

صم المسائل في يوم الجدال له

امضى وانفذ من صم الانابيبِ[2]

وكان كلامهم في اقامة الحق والرد على المسائل المستعصية في افحام من يجادلهم انفذ من صم الانابيب كناية عن الرماح، وكلامهم نافذ كما الرماح نافذة، وممدوحه دائما:

عفٌّ كريم السجايا محسن علم

من الهدى في سبيل الله منصوبِ[3]

والشاب الظريف في اغلب الاحيان يجمع تلك الصور في صورة واحدة او صور متتابعة تكون بمجموعها الشكل العام، فيجمع صورة الكرم الى صورة الشجاعة مع بعض الصور الاخرى التي تنبع من خلالها ؛ ذلك لان دراسة الصور مجتمعة تعين على كشف معنى اعمق من المعنى الظاهري للقصيدة[4] كقوله:

لابي المعالي راحةٌ وكَّافة

كالغيث يوم بروقه ورعودهِ

صبٌّ بتحصيل الثناءِ وجمعه

كلفٌ ببذلِ المالِ او تبديده

(1) الديوان: 85.
(2) الديوان: 82.
(3) الديوان: 86.
(4) فن الشعر: 200.

ما زال يشمل حاسديه نواله

حتى اقرَّ به لسان حسوده

سل عفوه وحسامه في غمده

وحذار ثم حذار من تجريده

يغشى الوغى متلفعا بردائه

ويخوضها متسربلا بحديده

فترى الشجاع يفرُّ منه مهابةً

والموت بين لهاته ووريده

يتقهقر الجيش اللهام مخافة

منه اذا وافى امام جنوده

وتعود مخفقة الرجاء عداته

وقلوبها خفاقة كبنوده

في معرك ان كسِّرت فيه القنا

وصل الحسام ركوعه بسجوده

.....

والدين اثَّلهُ وشادَ مناره

حين اعتنى بحقوقه وحدوده

والملْكُ لم ينفك يعمل عزمه

في نصر ظاهره ونصح سعيده

ان المنايا والاماني لم تزل

طوعا لسابق وعده ووعيده[1]

والصورة الاولى اعتمدت التشبيه بالكاف للدلالة على جود الممدوح مستعملا راحة اليد، فهي التي تعطي وتهب، ومن خلال صورة الغيث والتمازج بين الصورتين بيَّن ودلل على جود ممدوحه، فهو كالغيث اذا انهمر بما فيه من خير وعطاء، وهي صورة مألوفة للكرم في الشعر العربي، وبقوله (وكافة) مع بروقه ورعوده اكد العطاء مع الكثرة ؛ لانه صبٌّ ببذل المال وتحصيل الثناء.

فاستعمل حالة الهيام والصبابة بين العاشقين لرسم صورة لولعه بالكرم ومعانيه، وهذا الكلف من شدته فانه يشمل حاسديه ايضا فضلا عن محبيه، وهو حليم وعفو عند المقدرة، فالناس تطلب منه ما تشاء حال السلم عندما يكون حسامه في غمده. اما حين تجريده في وقت الحرب فهو مشغول بها، فحذار منه ومن باسه، وعند تجريده الحسام تبدأ صورة الحرب وكانه جسر يعبر من خلاله الى تلك الصورة، وشجاعته في الحرب ليس لها نظير او مثيل فيغشاها وهو متلفع برداء الملك لا يخلعه دلالة على شجاعته وعدم خوفه من اعدائه، وقوله متسربلا بحديده كناية على الدروع ولعله استلهم هذه الصورة من الشاعر كثير في مدح عبد الملك بن مروان وان كان قد عاب عليه ذلك[2] حين يقول:

وعلى ابن ابي العاص دلاص حصينة اجـــاد المســـدي ســـردها واذالهـــا[3]

فرسم صورة لحلمه وعقله الراجح في التوقي من ضربات الاعداء، والله سبحانه وتعالى اثنى على نبيه داود لصناعته الدروع في قوله تعالى : ﴿ وَعَلَّمْنَٰهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّنۢ بَأْسِكُمْ ۖ فَهَلْ أَنتُمْ شَٰكِرُونَ ﴾ الأنبياء: ٨٠، وفيه من البأس والمنفعة ما فيه لقوله تعالى: ﴿ وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ ﴾ الحديد: ٢٥.

ومن الصور الاخرى لشجاعته انه يسير امام الجيش والاعداء على كثرتهم يفرون امامه عند رؤيته خوفا منه، وهي صورة مرت وتكررت خلال الصور السابقة مما جعل اعدائه ورجائهم

(1) الديوان: 141-143.
(2) ينظر: نقد الشعر: 99.
(3) ديوان كثير عزة ، جمعه وشرحه د. احسان عباس، دار الثقافة، بيروت، لبنان 1391هـ-1971م 1971م د-ت:85.

بالنصر قد اخفق وقلوبهم خائفة وجلة خفاقة كبنوده ورایاته العالية الدائمة الخفقان في المعركة التي من شدتها تكسرت فيها الرماح او ضربات السيوف المتواصلة وحركتها في الارتفاع والانقضاض على جماجم اعدائه هي اشبه ما تكون بهيئة المصلي في قيامه وركوعه وسجوده.

وتستمر الصور تترى متتابعة متنقلة الى صورة الورع والتقوى وحرصه على الدين وعلى اخرته وتقابلها صورة اخرى للملك الذي في يده وحرصه عليه وعلى بناءه وبناء المعالي والعزة لملكه وله، فجعل للدين بناء وله منارة هو الذي اشادها كناية على عزة الدين وعلو شانه، كما ان له شان في الملك واعلائه. وتكتمل الصورة في البيت الاخير بجعله الاماني مرهونة بوعد منه، والمنايا لازمة لوعيده وهذه الصورة وغيرها كثيرة في شعره، وهي تكاد تشكل الصور الرئيسية لغرض المديح، وهي دائما ما تتكرر في اكثر من موضع، وللتدليل على ذلك سنعرج على قصيدة اخرى ونرى ما فيها من تلك الصور:

ومعشر لم تزل في الحرب بيضهم

حمر الخدود وما من شانها الخجلُ

اذا انتضوها بروقا ردها سحبا

بها دم سال منها عارض هطل

يثني حديث الوغى اعطافهم طربا

كان ذكر المنايا بينهم غزل

كم نار حرب بهم شبت وهم سحب

وارض قوم بهم فاضت وهم شعل

من كل ذي طرة سوداء يلبسها

غيم بها من عباب النقع متصل

ضاءت بحسنهم تلك الديار كما

ضاءت بوجه ابن عبد الظاهر الدول

كانما كف فتح الدين وجنته

لذلك يحسن في ساحاتها القبل

اغر ما ابدت السحب الحيا لسوى

تقصيرها عن نداه حين ينهمل

ان قلت يمناه مثل البحر صدقتي

بها مناهل منها تشرب القبل

يد لها كم يد من قبلها سبقت

يد وكم من يد من بعدها تصل

توحي الى كل قرطاس بلاغته

سحر البيان ومن اقلامه الرسل

سمر تروقك راي العين عارية

ومن بديع معانيه لها حلل

من كل معتدل كالميل ان رمدت

عين المعالي ففيها نَقْسهُ كحل

فللعداة لديه كل ما حذروا

وللعفاة عليه كل ما سألوا

اضحت يداه لعقد الجود واسطة

فليس يدري لجود بعدها عطل

يجود حتى يمل الناس انعمه

وليس يدركه بذل ولا ملل[1]

وهي صورة بديعة في المديح وظف خلالها بعض الصور التشبيهية والاستعارية او المجردة (تقريرية) وهو دائما ما يمازج بينها وبين الصور البيانية في اطار الصورة العام، فنراه يبتدئ صوره مستعملا سيوفهم في الحرب والدماء عليها وكانها غادة وقد احمرت خدودها خجلا، ولكن بيضهم انما احمرت من دماء الاعداء لا من الخجل وقد حذف اداة التشبيه وذكر وجه الشبه وهو اللون الاحمر ليكون التشبه ابلغ مما لو ذكرت الاداة.

والصورة الثانية طافحة بالخيال يرسم من خلالها صورة لسيوفهم حال انتضائها فهي كالبروق اللامعة اذا ردت الى اماكنها والدماء عليها كانت السحب ذات العارض الهطل كثير السيلان ووجه الشبه والربط هو البريق والسيلان.

واذا كان االشجاع يتهيب الحرب فان ذكرها عندهم يطربهم كما تطرب النفس لذكر الغزل فاستعمل كان اداة لرسم هذه الصورة ووجه الشبه هو الطرب، وكلما شب اوار الحرب واستعرت وحمى وطيسها كانوا بمثابة السحب الماطرة التي تطفئ تلكم النار من خلال بأسهم وسطوتهم وتغلبهم على اعدائهم يخمدون تلك الحرب بعد ان تاتي عليهم.

وينتقل الى صورة اخرى يظهرون فيها وهم شعل ومنارات للهدى والكرم والحسن حتى فاضت الارض بكرمهم وانارت بوجودهم بعد ان كانت مجدبة غير عامرة، ويكرر صورة الغبار في المعركة بانه كالغيم المتصل، وهم خلاله يلبسون السواد ولعل الشاعر اراد ان يعبر عن سطوة ممدوحه فهو كالموت الاسود الذي يحصد الارواح او انه اراد ان يبني صورة المعركة واهوالها، والتي يبدو فيها كل شيء اسود للعيان من الملابس الى الغبار المتصاعد الحالك السواد وهم خلاله كالشعل، ويؤكد هذه الصورة فيما بعدها بقوله ((اضاءت)) له ولقومه الذين هم كالمصابيح او النار التي تضيء الخيام ونور الممدوح وهو منهم اشمل واعم، فقد اضاءت من نور وجهه الدول والاقاليم ومنه قوله:

(1) الديوان: 250 – 251.

ان اظلم الدهر ضاء حسنهم

وان أُمرَّت ايامنا عذبوا[1]

- والحطيئة ادلى بدلوه قبله في هذا الجانب حيث يقول:

هم القوم الذين اذا المت

من الايام مظلمة اضاءوا[2]

ولعل هذا الشكل من اشكال الصورة يضاف الى صورة الشجاعة والكرم والورع والتقوى وحسن الخلق والبلاغة وان وردت بصورة اقل كقوله:

وجه تغار الشمس منه اذا بدا

وتود لو طبعت على امثالهِ[3]

فهو دائما ما يقرن هذه الصورة بصورة الشمس في جمالها واشراقها كقوله:

اذا سطا قلت يا اسد العرين قفي

وان بدا قلت يا شمس الضحى غيبي[4]

ويوظف التشبيه مرة اخرى من خلال الاداة "كان" فشبه كف الممدوح بوجنتيه لذلك يحسن في ساحتها القبل ووجه الشبه هو الحسن والجمال، ومبالغة في رسم صورة لكرم الممدوح فان السحب تبدي الحياء ؛ لانها مقصرة لا تجاري نداه وعطائه، وذكر الفعل ينهمل لكي تتوضح صورة العطاء وكثرته فهو ينهمل انهمالا اشد من المطر، وتراه يكرر هذه الصورة في موضع اخر فيقول:

(1) الديوان: 44.
(2) ديوان الحطيئة: بشرح ابي سعيد السكري ، دار صادر، بيروت، 1967، 57.
(3) الديوان: 275.
(4) الديوان: 82.

وتخجل السحب من اكفهم

من اجل هذا تبدي الحيا السحبُ [1]

وقد سبقه شعراء كثر الى هذه الصورة كابي نؤاس مثلا حيث يقول:

ان السحاب لتستحي اذا نظرت

الى يداك فقاسته بما فيها[2]

ولاكمال تلاوين هذه الصورة وتوكيدا لمعنى الجود والعطاء في ممدوحه رسم لذلك صورة مالوفة هي صورة البحر وهو يزخر بعطائه، فالممدوح يمناه مثل البحر ووجه الشبه هو العطاء، ويصدق هذا القول جعلها كالمناهل التي تشرب الناس منها، وكما ان تلك المناهل لا غنى عنها، فان ما تجود به يد الممدوح كتلك المناهل لا غنى عنها.

وخص اليد اليمنى بالعطاء ليرسم صورة للخير العميم، فالعرب دائما ما تتيامن في الخير ؛ لان اليمين من اليمن والبركة وتتطير مما سواهما، فيمناه ليست رمز العطاء فقط وانما هي رمز للخير والبركة وهذه الصورة متوارثة في عائلته فهي ليست غريبة عنه وانما اننتقلت اليه من ابائه واجداده الاول حتى وصلت اليه، ومن ستتواصل فيهم ومن يليهم ومن خلال تكراره للفظة اليد اربع مرات للدلالة على هذه الصورة وذلك المعنى.

والصورة الاخرى هي رسم لفصاحته وبلاغته حيث ان كلامه كانه الوحي المنزل الى القراطيس وكأن اقلامه الرسل التي تبلغ ذلك الوحي، فشبه سحر بيانه وكانه منزل من بلاغته، واقلامه هي الرسل التي تبلغه الى تلك القراطيس، ويرسم صورة بصرية لتلك الاقلام فهي سمر عارية ولكن معانيه البديعية هي التي البستها الحلل وجعلت لها اهمية.

وبعد كل تلك الصور فقد ابلغ ممدوحه الى المعالي فهو لا يدانى، من خلال بلوغه الذروة بتوظيفه صور تشبيهية استعارية، فهو معتدل كالميل الذي يستخدم للكحل ووجه الشبه هو الاعتدال وتوج الصورة بان جعل للمعالي عينا كلما رمدت كحلوها، ولك ان تتخيل تلك الصورة صورة

(1) الديوان: 44.
(2) ديوان ابي نؤاس (الحسن بن هانئ): تح احمد عبد المجيد الغزالي، مطبعة مصر – القاهرة، القاهرة، 1953م: 464.

الاعتدال كالميل والتكحيل بهذا الميل فضلا عن استعماله للاستعارة بان جعل للمعاني عينا هم الذين يكحلونها كلما رمدت، وهو انما اراد ان يرسم لهم صورة في الرفعة وعلو المنزلة.

ويجمع بين صورتي الشجاعة والكرم فللعداة لديه كل ما حذروا وللمتلقي ان يكمل الصورة ويتخيل ما يحذره الاعداء منه من بطش وباس وسطوة...، وللعفاة لديه كل ما سالوا وللمتلقي ايضا ان يتخيل ما يمكن ان يساله العفاة من نوال وجاه ومال...

ولقد بلغت صورة الكرم اوجها من خلال استعمال الاستعارة لرسم صورة له بان جعل للجود عقدا وواسطة هذا العقد هي يداه ومن المعلوم ان اكبر واجمل ما في العقد واسطته، وكانما اراد الشاعر ان يقول بان ممدوحه والجود اصبحا متلازمين كما ان العقد وواسطته متلازمان ايضا ؛ لذلك لا يعرف للجود عطل بعدها، ولاكمال هذه الصورة فان الشاعر جعل الناس تمل لكثرة عطاياه لهم ومع ذلك فانه لا يمل ذلك.

والملاحظ في صورة المديح انها ترتكز على عنصر الخيال اكثر من ارتكازها على عنصر العاطفة كما يلاحظ في اغلب الامثلة السابقة او كقوله:

يعلمون الورى آدابهم ولهم

بيض اذا غضبوا لا تعرف الادبا

لو لقبوا بالغصون السمر صدقهم

جعل الرؤوس لها يوم الوغى كثبا[1]

فسيوفهم لا تعرف الادب في حومة الوغى وهم كالغصون السمر كناية عن الرماح ومصداق ذلك انهم جعلوا رؤوس اعدائهم في يوم النزال كثبانًا كثبانا، وهي صورة تجنح الى الخيال وربما كان العكس بالنسبة لغرض الغزل فنجد استعارة طافحة بالعاطفة كما مر في الامثلة السابقة فاثارة الشعور والاحساس مقدم في الشعر على اثارة الفكر[2].

(1) الديوان: 62.
(2) النقد الادبي الحديث، د. محمد غنيم هلال/ دار الثقافة، بيروت، لبنان. 1913م: 376.

ركائب سهدي من قراها المدامع

هداها لهيب اضرمته الاضالعُ

ابيتُ ابيتُ الليل الا بلوعةٍ

اقضَّت بها وجدا عليَّ المضاجع

كأن الدجى يبكي لحالي رحمة

فتلك النجوم الزاهرات مدامع

يا رب هل طيف الحبيبة زائر

وهل عهد ليلى بالاجيراع راجع

ويا ربة الخال الخلية من جوى

محب له دون التصبر مانع

هجرت فلم يستغرق الطرف هجعة

فناظره صاد وهجرك صادع

وما ذنب من لاعنده الذنب ذائع

ولا السر مبذول ولا العهد ضائع[1]

وربما كان العكس صحيحًا كقوله:

ولي جلد عند بيض الظُّبا

وبالاعين النجل مالي قبلْ

(1) الديوان: 203 – 304.

ولي قمر ما بدا في الدجى

وابصره البدر الا افل

فيا خجلة الظَّبي لما بدا

شبيها له في اللمى والكحل

ويا خجلة الشمس لما بدت

الم تر فيها احمرار الخجل[1]

فالشاعر له شعر عند الظبا (السيوف) في حومة الوغى، ولكن الاعين الواسعة قد اصابته فما له قبل بها، وهو كالقمر المنير في الدجى والبدر يأفل خجلا منه والظبي ايضا يخجل منه لمشابهته اياه في اللمى –سواد في باطن الشفة- وفي اعينه المكتحلة، وكذلك هي الحال بالنسبة للشمس فهي تخجل منه ؛ لذلك تكون بادية الاحمرار كأن لها خدودا تحمر عند طلعته، وهذه الصورة مكررة كقوله:

مذ راته الشمس في الحمل لم تكد تبدو من الخجلِ[2]

ومن صوره المتخيلة الاخرى قوله:

يا فاضح البدر حسنا ومخجلا للقضيبِ

ويا غزالا شرودا مرعاه حب القلوب

ويا هلالا تبدى على قضيب رطيب[3]

والملاحظ ان صوره المتخيلة دائما ما تقترن بالقمر وجماله والبدر واكتماله وطلعة هلاله، والشمس ونورها والغزال والرشا والظبي برشاقته ولحظه واكتحاله، والغصن بميله واعتداله الى غير ذلك من التشبيهات كقوله:

(1) الديوان: 283.
(2) الديوان: 267.
(3) الديوان: 79.

عـــن لـــي دميـــة و لاح هـــلالا وانثنـــى صـــعدة وفـــر غـــزالا

فتـــذللت حـــين ابـــدى دلالا ورأى رخـــص ادمعـــي فتغـــالا[1]

وهي تشبيهات متعارف عليها فالعرب تشبه ((المرأة بالشمس والقمر والكثيب والغزال والبقرة الوحشية والسحابة البيضاء والدرة والبيضة))[2] لكن الشاب الظريف صاغها بصياغة جميلة بان جعل تلك الاشياء تخجل من جماله مبالغة منه في رسم تلك الصورة، ومن صوره الاخرى التي شبه فيها لحاظ صاحبته بلحاظ الظبي قوله:

لحاظ الظُّبا تحكي الظبي في المضارب

على انها امضى بقطع الضرائبِ

.....

ظبي مقل سالمتهن لدى الهوى

وافعالها في القلب فعل المحارب

وقد جردت للفتك فينا فلا ترى

سوى دم مضروب على خد ضارب[3]

فلم يكتف ان شبه لحاظه بلحظ الظبي ولكن تجاوز ذلك الى ما تفعله في القلوب فهي امضى من السيوف القواطع في الفتك بها، فهي كالمحارب وهي دائمة التجريد فلا ترى من افعالها الا دم مضروب على خد ضارب كناية عن الاحمرار، وهي صورة متخيلة للحمرة التي في خده، فهي بعض من دماء الوداد الذي ذبحه، وقد يرسم الصورة نفسها من خلال استعمال اللون الاحمر ولكن للشعر هذه المرة :

عابوا من المحبوب حمرة شعره

(1) الديوان: 261.
(2) الكامل/ لابي العباس محمد بن يزيد المبرد (ت 285هـ) ، المكتبة التجارية الكبرى، مصر: 48/1.
48/1.
(3) الديوان: 71.

واظنهم بدليله لم يشعروا

لا تنكروا ما احمر منه فانه

بدماء ارباب الغرام مظفَّر[1]

والملاحظ: ان اغلب مصادر رسم تلك الصور هي مصادر ذاتية (الطبيعة والبيئة) ويكتسب اللون فيها اهمية كبيرة كما في الامثلة السابقة او قوله:

فلا تحذروا بيض القواضب وواحذروا

قواضب سود في عيون الكواعب

وليل شربنا فيه كاسا من اللمى

على جلنار من خدود الحبائبِ

تريك به ضحكا بروق ثغوره

اذا ما بكت فيه عيون السحائب[2]

فللسيوف القواطع البياض، ولعينيه القواضب اللون الاسود مع شدته، واللمى اللون الاسود المستحسن في باطن الشفة وهي كالخمر في عذوبتها، وللخدود الجلنار وهو اللون الاحمر لون ورد الرمان ولثناياه عند الضحك اللون الابيض فهي كالبروق في توهجها ولمعانها، وتوج هذه الصورة بالاستعارة بان جعل للسحائب عيونا تبكي دلالة على المطر، ولعل الشاعر يقصد بذلك نفسه فاستعمل الطباق بين الضحك لصاحبته والبكاء له، ويوضح الصورة في موضع اخر بقوله:

يبيت قلبي عليه حرقة وجوى

وقلبه بارد من لوعتي شبمُ[3]

(1) الديوان: 156.
(2) الديوان: 71 – 72.
(3) الديوان: 299.

ويقصد بصورة الكاس في البيت الثاني الخمرة واللمى هي الثغور، وكانه اراد ان يقول بان تلك اللمى هي كالخمرة في بعث النشوة وسلب العقول ويوضح ذلك في موضع آخر فيقول:

هويـــــت مـــــن ريقتـــــه قرقـــــف ومـــــا لـــــه فـــــي ذاك مـــــن شـــــاربِ[1]

وفي اغلب الاحيان ترى ان عنصري العاطفة والخيال متلازمان وربما زاد احدهما على الآخر او تعاضدا في رسم صورة الغزل كقوله:

يا قوم قد شفني وجدي ببدر دجى

على قضيب اراك ناعم نضرِ

ظبي من الانس لولا سحر مقلته

ما بت فيه بليل غير ذي سحر

في حاجبيه وعينيه ومنطقه

شبه من القسي والاسهام والوتر

روض الجمال وافق الحسن فهو لذا

قد راح يجمع بين الغصن والقمر[2]

من خلال لفظة واحدة هي قوله (شفني) يرسم صورة لعاطفته الجياشة التي اسقمته وامرضته، ومن ثم يرسم صورا متخيلة لاسباب هذا السقم وهذا المرض. والتي هي في الوقت نفسه اسباب تعلقه وهواه ؛ لانه اولا كالبدر في الدجى والبدر في ذلك الوقت اكثر اشعاعا وجمالا، فيشبه وجهه الى جانب شعرها وكانه البدر ومن حوله الظلمة يكلل جمال صاحبته، وهو ايضا كالغصن في نضارته وكالظبي الا انه من الانس وسحر مقلته قد سلبه النوم ووهبه التسهد ورعي النجوم:

ســـــلبتني الرقـــــاد اعينـــــك الســـــو د وتحلـــــو فعالهـــــا وتطيـــــبُ[3]

(1) الديوان: 91.
(2) الديوان: 172.
(3) الديوان: 50.

وقوله :

ان الذين فؤادي في الهوى نهبوا

لناظري سهادي في الدجى وهبوا[1]

وفي البيت الثالث يرسم صورة من خلال تشبيه ثلاثة اشياء بثلاثة اشياء اخرى لكي تبدو الصورة مكتملة، فشبه حاجبيه وعينيه ومنطقه بالقسي والاسهام والوتر. ووجه الشبه هو الشكل والهيئة فضلا عن رمي السهام والاصابة والفتك بالاخرين.

ومن خلال الاستعارة جعل للجمال روضة وللحسن افقا لذلك راح يجمع بين الغصن من تلك الروضة والقمر من افقها. وقد يبالغ في تصوير ذلك الجمال فهو لا يشبه القمر فحسب وانما اقل مما في جمال طلعته هو اجل محاسن القمر:

اقل ما في جمال طلعته

اجل ما في محاسن القمرِ[2]

والكون ماهو الا صورة وهو بمثابة الروح لها لذلك يقترن بكل ما هو جميل فيها:

وما الكون الا صورة انت روحها

وجسم بغير الروح كيف يقومُ[3]

واخيرا فان الصورة اهمية كبرى – كما اسلفنا – في عملية الابداع الشعري وتشكيلها، فقد تشيها بالخيال تارة، وتشيها بالعواطف والاحاسيس تارة اخرى، وربما كانت ايجازا وتكثيفا او انفعالات واحاسيسا او افهاما وتقريبا وتوكيدا ومشاركة للمتلقي في عملية الرسم، وقد وظف الشاب الظريف هذه الاشياء لتكون اساسا تقوم به الصورة. وسآتي الى ذكر بعض من مصادر الصورة عند الشاب الظريف.

(1) الديوان: 51.
(2) الديوان: 174.
(3) الديوان: 301.